

باب فَضْلُ التَّوْحِيدِ وَمَا يَكْفِرُ مِنَ الذَّنُوبِ

وقول الله تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمَنُ وَهُمْ مُّهْتَدُونَ﴾ (١) [الأنعام: ٨٢].

مناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد: لما بيّن في الباب الأول وجوب التوحيد ومعناه، بيّن في هذا الباب فضل التوحيد وآثاره الحميدة، ونتائجه الجميلة التي منها تكفير الذنوب؛ لأجل الحث عليه والترغيب فيه.

باب: هو لغة: المدخل، واصطلاحاً: اسمٌ لجُملةٍ من العلم تحتها فصولٌ ومسائلٌ غالباً.

يكفرُ: التكفيرُ في اللغة: السترُ والتغطيةُ. وشرعاً: محوُ الذنبِ حتّى يصيرَ بمنزلةِ المعدومِ.

مِنَ الذَّنُوبِ: (من) بيانيةٌ وليست للتبعيةِ، والذنوبُ: جمعُ

(١) عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: لما نزلت: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ قلنا: يا رسول الله: أين لا يظلم نفسه؟ قال: «ليس كما تقولون: ﴿لَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ بشرك، أو لم تسمعوا إلى قول لقمان لابنه: ﴿يَبْنِي لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾».

أخرجه البخاري برقم (٣٣٦٠) ومسلم برقم (١٢٤).

ذنبٍ وهو ما تَقَبَّحُ عاقِبَتُهُ .

آمَنُوا: صَدَّقُوا بقلوبِهِمْ، ونَطَقُوا بِالسَّتِّهِمْ، وعَمِلُوا بِجوارِحِهِمْ، ورَأَسُ ذَلِكَ التَّوْحِيدُ .

يَلْبَسُوا إِيمَانَهُمْ: يَخْلُطُوا تَوْحِيدَهُمْ .

بِظُلْمٍ: بِشُرْكَ - وَالظُّلْمُ وَضْعُ الشَّيْءِ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ - سُمِّيَ الشُّرْكُ ظُلْمًا لِأَنَّهُ وَضِعٌ لِلْعِبَادَةِ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهَا وَصَرَفٌ لَهَا لغيرِ مُسْتَحَقِّهَا .
الْأَمْنُ: طَمَأْنِينَةُ النَّفْسِ وَزَوَالُ الْخَوْفِ .

مَهْتَدُونَ: أَي مَوْفِقُونَ لِلسَّيْرِ عَلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ ثَابِتُونَ عَلَيْهِ .
الْمَعْنَى الْإِجْمَالِيُّ لِلآيَةِ: يَخْبِرُ سُبْحَانَهُ أَنَّ الَّذِينَ أَخْلَصُوا الْعِبَادَةَ لِلَّهِ وَحْدَهُ وَلَمْ يَخْلُطُوا تَوْحِيدَهُمْ بِشُرْكَ هُمْ الْآمِنُونَ مِنَ الْمَخَافِ وَالْمَكَارِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، الْمَهْتَدُونَ لِلسَّيْرِ عَلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ فِي الدُّنْيَا .
مُنَاسِبَةُ الْآيَةِ لِلْبَابِ: أَنَّهَا دَلَّتْ عَلَى فَضْلِ التَّوْحِيدِ وَتَكْفِيرِهِ لِلذُّنُوبِ .

مَا يُسْتَفَادُ مِنَ الْآيَةِ:

- ١ - فَضْلُ التَّوْحِيدِ وَثَمَرَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ .
- ٢ - أَنَّ الشُّرْكَ ظُلْمٌ مُبْطِلٌ لِلْإِيمَانِ بِاللَّهِ إِنْ كَانَ أَكْبَرَ، أَوْ مُنْقَصٌ لَهُ إِنْ كَانَ أَصْغَرَ .
- ٣ - أَنَّ الشُّرْكَ لَا يَغْفَرُ .
- ٤ - أَنَّ الشُّرْكَ يَسَبِّبُ الْخَوْفَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ .

عن عبادة بن الصامت - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ، وَأَنَّ عِيسَى عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ ، وَالْجَنَّةُ حَقٌّ وَالنَّارُ حَقٌّ ، أَدْخَلَهُ اللَّهُ الْجَنَّةَ عَلَى مَا كَانَ مِنَ الْعَمَلِ » أخرجاه (١) .

عبادة بن الصامت : هو عبادة بن الصامت بن قيس الأنصاري الخزرجي أحد النقباء بدري مشهور توفي سنة ٣٤ هـ وله ٧٢ سنة .
شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ : تكلّم بهذه الكلمة عارفاً لمعناها عاملاً بمقتضاها ظاهراً وباطناً .

لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ : لا معبود بحق إلا الله .

وحده : حالٌ مؤكّد للإثبات .

لا شريك له : تأكيدٌ للنفي .

وأن محمداً : أي وشهد أنّ محمداً .

عبدُهُ : مملوكُهُ وعابدهُ .

ورَسُولُهُ : مرسلُهُ بشريعته .

وأن عيسى : أي وشهد أنّ عيسى ابنُ مريم .

عبدُ الله ورسولُهُ : خلافاً لما يعتقده النصارى أنه الله أو ابنُ الله أو

(١) أخرجه البخاري برقم (٣٤٣٥) ومسلم برقم (٢٨) والترمذي برقم (٢٦٤٠) وأحمد في مسنده (٣١٤/٥) .

ثالثُ ثلاثة .

وكلمتهُ : أي أنه خلقه بكلمةٍ وهي قوله : (كُنْ).

ألقاها إلى مريمَ : أرسلَ بها جبريلَ إليها فنفخَ فيها مِنْ روحِهِ المخلوقةِ بإذنِ الله عزَّ وجلَّ .

وروحُ : أي أنَّ عيسى عليه السلامُ روحٌ مِنَ الأرواحِ التي خَلَقَهَا اللهُ تعالى .

منه : أي منه خلقاً وإيجاداً كقوله تعالى : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ﴾ [الباقية : ١٣] .

والجنة حقٌّ والنار حقٌّ : أي شهد أنَّ الجنةَ والنارَ اللتين أخبرَ اللهُ عنهما في كتابهِ ثابتتان لا شكَّ فيهما .

أدخله اللهُ الجنةَ : جوابُ الشرطِ السابقِ من قوله : مَنْ شَهِدَ . . . إلخ).

على ما كان مِنَ العملِ : يحتملُ معنيين :

الأولُ : أدخله اللهُ الجنةَ وإنْ كانَ مقصراً وَلَهُ ذُنُوبٌ ؛ لِأَنَّ الموحِدَ لا بُدَّ لَهُ مِنْ دخولِ الجنةِ .

الثاني : أدخله اللهُ الجنةَ وتكونُ منزلتُهُ فيها على حَسَبِ عَمَلِهِ .

أخرجاه : أي روى هذا الحديثَ البخاريُّ ومسلمٌ في صحيحيهما اللذين هما أصحُّ الكتبِ بعدَ القرآنِ .

المعنى الإجماليُّ للحديث : أنَّ الرسولَ ﷺ يخبرُنَا مبيناً لَنَا فضلَ التوحيدِ وشرفه : أنَّ مَنْ نطقَ بالشهادتينِ عارفاً لمعناهُمَا عاملاً بمقتضاهُمَا ظاهراً وباطناً وتجنبَ الإفراطَ والتفريطَ في حقِّ النبيِّينِ الكريمينِ عيسى ومحمد عليهما الصلاةُ والسلامُ - فأقرَّ لهما بالرسالةِ

وعبوديتهما لله وأنه ليس لهما شيءٌ من خصائص الربوبية - وأيقنَ بالجنة والنار أن مآله إلى الجنة وإن صدرَ منه معاصٍ دون الشرك .

مناسبة الحديث للباب : أن فيه بياناً لفضل التوحيد ، وأنه سبب لدخول الجنة وتكفير الذنوب .

ما يُستفاد من الحديث :

- ١ - فضل التوحيد وأن الله يُكفر به الذنوب .
- ٢ - سعة فضل الله وإحسانه سبحانه وتعالى .
- ٣ - وجوب تجنب الإفراط والتفريط في حق الأنبياء والصالحين ، فلا نجحاً فضلهم ولا نغلو فيهم فنصرف لهم شيئاً من العبادة ، كما يفعل بعض الجهال والضلال .
- ٤ - أن عقيدة التوحيد تخالف جميع الملل الكفرية من اليهود والنصارى والوثنيين والدهريين .
- ٥ - أن عصاة الموحدين لا يخلّدون في النار .

* * *

ولهما في حديث عِثْبَانَ :
 «فَإِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ عَلَى النَّارِ مَنْ قَالَ : لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يُبْتَغَى بِذَلِكَ
 وَجْهُ اللَّهِ»^(١) .

عِثْبَانُ : هو عِثْبَانُ بْنُ مَالِكِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَجَلَانِ الْأَنْصَارِيُّ مِنْ بَنِي
 سَالِمِ بْنِ عَوْفٍ صَحَابِيٍّ مَشْهُورٌ مَاتَ فِي خِلَافَةِ مُعَاوِيَةَ .
 ولهما : أي روى البخاري ومسلم في صحيحيهما هذا الحديث
 بكماله ، وهذا طرفٌ منه .
 حَرَّمَ عَلَى النَّارِ : التحريمُ : المنعُ أي منع النار أن تمسه .
 يَبْتَغَى بِذَلِكَ وَجْهَ اللَّهِ : أي مخلصاً من قلبه ومات على ذلك ، ولم
 يقلها نفاقاً .

المعنى الإجماليُّ للحديث :
 أَنَّ الرَّسُولَ ﷺ يَخْبِرُ خَبْرًا مُؤَكَّدًا أَنَّ مَنْ تَلَفَّظَ بِكَلِمَةِ (لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ)
 قَاصِدًا مَا تَدُلُّ عَلَيْهِ مِنَ الْإِخْلَاصِ وَنَفْيِ الشِّرْكِ عَامِلًا بِذَلِكَ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا
 وَمَاتَ عَلَى تِلْكَ الْحَالِ لَمْ تَمْسَهُ النَّارُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ .
 مناسِبَةُ الْحَدِيثِ لِلْبَابِ : أَنَّ فِيهِ دَلَالَةً وَاضِحَةً عَلَى فَضْلِ التَّوْحِيدِ
 وَأَنَّهُ يَوْجِبُ لِمَنْ مَاتَ عَلَيْهِ النِّجَاةَ مِنَ النَّارِ وَتَكْفِيرَ السَّيِّئَاتِ .

(١) أخرجه البخاري برقم (٤٢٥) ومسلم برقم (٣٣) وأحمد في مسنده (٤٤/٤)،
 (٤٤٩/٥) .

ما يُستفاد من الحديث :

- ١ - فضل التوحيد وأنه ينقذ من النار ويكفر الخطايا .
- ٢ - أنه لا يكفي في الإيمان النطق من غير اعتقاد القلب كحال المنافقين .
- ٣ - أنه لا يكفي في الإيمان الاعتقاد من غير نطق . كحال الجاحدين .
- ٤ - تحريم النار على أهل التوحيد الكامل .
- ٥ - أن العمل لا ينفع إلا إذا كان خالصاً لوجه الله وصواباً على سنة رسول الله ﷺ .
- ٦ - أن من قال لا إله إلا الله وهو يدعو غير الله لم تنفعه عباد القبور اليوم يقولون لا إله إلا الله وهم يدعون الموتى ويتقربون إليهم .
- ٧ - إثبات الوجه لله تعالى على ما يليق بجلاله وعظمته .

* * *

وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «قَالَ مُوسَى: يَا رَبِّ عَلَّمَنِي شَيْئًا أَذْكُرُكَ وَأَدْعُوكَ بِهِ، قَالَ: قُلْ يَا مُوسَى: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، قَالَ: يَا رَبِّ كُلُّ عِبَادِكَ يَقُولُونَ هَذَا، قَالَ: يَا مُوسَى لَوْ أَنَّ السَّمَوَاتِ السَّبْعَ وَعَامِرُهُنَّ غَيْرِي وَالْأَرْضِينَ السَّبْعَ فِي كَفَّةٍ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ فِي كِفَّةٍ مَالَتْ بِهِنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ» رواه ابنُ حبانَ والحاكمُ وصحَّحَهُ^(١).

أبو سعيد الخدري: هو أبو سعيد الخدريُّ سعدُ بن مالك بن سنانٍ الخزرجيُّ الأنصاريُّ الخدريُّ نسبةً إلى بني خدرَةَ، صحابيُّ جليلٌ وابنُ صحابيٍّ روى عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَحَادِيثَ كَثِيرَةً مَاتَ سَنَةَ ٧٤ هـ.

موسى: هو موسى بنُ عمرانَ رسولُ اللَّهِ إلى بني إِسْرَائِيلَ وَكَلِيمُ الرَّحْمَنِ.

أَذْكُرُكَ: أَتُنِي عَلَيْكَ وَأَحْمَدُكَ بِهِ.

وَأَدْعُوكَ بِهِ: أَتُوسِّلُ بِهِ إِلَيْكَ إِذَا دَعَوْتُكَ.

يقولون هذا: أي هذه الكلمة.

وعامرهنَّ غيري: مَنْ فِيهِنَّ مِنَ الْعَمَارِ غَيْرُ اللَّهِ.

في كفةٍ: أي لو وُضِعَتْ هَذِهِ الْمَخْلُوقَاتُ فِي كِفَّةٍ مِنْ كِفَّتِي الْمِيزَانِ وَوُضِعَتْ هَذِهِ الْكَلِمَةُ فِي الْكِفَّةِ الْآخَرَى.

(١) أخرجه ابن حبان برقم (٢٣٢٤)، والحاكم في المستدرک (٥٢٨/١) والنسائي في عمل اليوم والليلة برقم (٨٣٤، ١١٤١) وصححه ابن حبان والحاكم ووافقه الذهبي. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٨٢/١٠): رواه أبو يعلى ورجاله وثقوا وفيهم ضعف.

مالت بهنّ: رَجَحَتْ عليهنّ.

المعنى الإجمالي للحديث: أن موسى عليه الصلاة والسلام طلب من ربه عز وجل أن يعلمه ذكرًا يُثني عليه به ويتوسل إليه به، فأرشدّه الله أن يقول: لا إله إلا الله فأدرك موسى أن هذه الكلمة كثير ذكرها على السنة الخلق، وهو إنما يريد أن يخصّه بذكر يمتاز به عن غيره، فبين الله له عظم فضل هذا الذكر الذي أرشدّه إليه، وأنه لا شيء يعادله في الفضل. مناسبة الحديث للباب: أن فيه بيان فضل كلمة التوحيد، وأنه لا شيء يعادله في الفضيلة.

ما يُستفاد من الحديث:

- ١ - عظم فضل لا إله إلا الله، لما تتضمنه من التوحيد والإخلاص.
- ٢ - فضل موسى عليه السلام وحرصه على التقرب إلى الله.
- ٣ - أن العبادة لا تكون إلا بما شرعه الله وليس للإنسان أن يتدع فيها من عند نفسه، لأن موسى طلب من ربه أن يعلمه ما يذكره به.
- ٤ - أن ما اشتدت الحاجة والضرورة إليه كان أكثر وجوداً، فإن لا إله إلا الله لمّا كان العالم مضطراً إليها كانت أكثر الأذكار وجوداً وأيسرها حصولاً.
- ٥ - أن الله فوق السموات لقوله: (وعامرهنّ غيري).
- ٦ - أنه لا بُدّ في الذكر بهذه الكلمة من التلقظ بها كلّها، ولا يقتصر على لفظ الجلالة (الله) كما يفعل بعض الجهال.
- ٧ - إثبات ميزان الأعمال وأنه حق.
- ٨ - أن الأنبياء يحتاجون إلى التنبيه على فضل لا إله إلا الله.
- ٩ - أن الأرضين سبع كالسموات.

وللترمذي - وحسنه : عَنْ أَنَسٍ - رضي الله عنه - سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقولُ : « قَالَ اللهُ تَعَالَى ؛ يَا ابْنَ آدَمَ ، لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الْأَرْضِ خَطَايَا ثُمَّ لَقِيتَنِي لَا تُشْرِكُ بِي شَيْئًا لَأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً »^(١) .

أنسٌ : هو أنسُ بْنُ مَالِكِ بْنِ النضرِ الأنصاريُّ الخزرجيُّ خادمُ رسولِ الله ﷺ ، خدمهُ عشرَ سنين ، وقال النبي ﷺ : « اللَّهُمَّ أَكْثَرُ مَا لَهُ وَلَدُهُ وَأَدْخِلْهُ الْجَنَّةَ » مات سنة ٩٢ وقيل سنة ٩٣ هـ وقد جاوزَ المائةَ .

وللترمذي وحسنه : أي وروى الترمذي في سننه الحديث المذكور ، وحسنَ إسنادهُ .

قُرَاب : بضمِّ القافِ وقيل بكسرِهَا ، والضمُّ أشهرُ : وهو ملؤها أو ما يقاربُ ملأها .

ثم لقيتني لا تشركُ بي شيئاً : أي ثم مُتَّ حالَ كونِكَ سالماً مِنَ الشركِ ، وهذا شرطٌ في الوعدِ بحصولِ المَغْفِرَةِ .

مَغْفِرَةٌ : الغفرُ لغةٌ : السترُ ، وشرعاً : تجاوزُ الله عَنْ خطايا وذنوبِ عباده .

المعنى الإجماليُّ للحديثِ : يخبرُ النبي ﷺ عَنْ رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ أَنَّهُ

(١) أخرجه الترمذي برقم (٣٥٣٤) والدارمي برقم (٢٧٩١) وأحمد (١٧٢/٥) وحسنه الترمذي .

يخاطبُ عباده ويبيِّن لهم سعةَ فضله، ورحمته، وأنَّه يغفرُ الذنوبَ مهما كَثُرَتْ ما دامتْ دونَ الشرك، وهذا الحديثُ مثلُ قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ، وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾.

مناسبة الحديث للباب: أن فيه دليلاً على كثرةِ ثوابِ التوحيد، وأنه يكفرُ الذنوبَ مهما كَثُرَتْ.

ما يُستفادُ من الحديث:

- ١ - فضلُ التوحيدِ وكثرةُ ثوابه.
- ٢ - سعةُ فضلِ الله وجوده ورحمته وعفوه.
- ٣ - الردُّ على الخوارج الذين يكفُّون مرتكبَ الكبيرة التي هي دُونُ الشرك.
- ٤ - إثباتُ الكلامِ لله عزَّ وجلَّ على ما يليقُ بجلاله.
- ٥ - بيانُ لمعنى لا إله إلا الله، وأنه تركُ الشركِ قليله وكثيره، ولا يكفي قولُها باللسان.
- ٦ - إثباتُ البعثِ والحسابِ والجزاء.